

مدائن صالح، محطة على طريق التجارة القديمة

ضيف الله الطلحي*

الموقع :

تقع مدائن صالح في شمال غرب المملكة العربية السعودية، عند خط طول 37 52 ودائرة عرض 26-47 وعلى بعد حوالي 20 كم شمال مدينة العلا. وقد عرفت قديماً باسم "الحجر" حيث ورد ذكرها في القرآن الكريم: "ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين، وأتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين. وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين" (الحجر الآية 79). وذكرها المقدسي (توفي سنة 390هـ/1000م) وأسمها "حجر صالح"، ووصفها بقوله: "الحجر صغيرة حصينة كثيرة الآبار والمزارع، ومسجد صالح بالقرب على نشزة مثل الصفيّة قد نقر في صخرة، وثم عجائب ثمود وبيوتهم، وسقيا يزيد، هي أحسن من هذه الناحية والنخيل والبساتين متصلة من قرح إليها والجامع خارج البلد". (المقدسي، أحسن التقاسيم، 67). وأشار إليها ياقوت (توفي سنة 626هـ/1228م) "الحجر: أسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام". (الحموي، المعجم، 2، 254).

أهم المعالم

لقد اكتسب الموقع شهرته من المقابر العظيمة المنحوتة في الصخر والتي يبلغ عددها 138 مقبرة حسب المسح الذي أجرته وكالة الآثار والمتاحف بالتعاون مع المعهد الجغرافي

* - وكالة الآثار والمتاحف في المملكة العربية السعودية.

الفرنسي (N.G.I)، ويبلغ عدد المقابر المنحوتة ذات الطابع المعماري 80 مقبرة، منها 36 تحمل نقوشاً. والمقابر المؤرخة تبلغ 33 مقبرة تتراوح تواريخها من 1 ق.م إلى 75 ميلادي.

كتبت النقوش بالخط الآرامي وكانت توضع عادة داخل إطار خارج المقبرة فوق الباب، ويتراوح طول هذه النصوص من سطر واحد كما في المقبرة (H21)^a إلى 14 سطراً كما في المقبرة (H34). وفي غياب تاريخ مكتوب سجله الأنباط عن حياتهم تعتبر هذه المقابر مصدراً رئيساً للمعلومات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية.

تحمل النقوش مضامين عن الحالة الاجتماعية السائدة لدى الأنباط مثل الوضع المميز الذي كانت تتمتع به المرأة، حيث كان لها حق الملكية فكثير من المقابر تعود ملكيتها لنساء مثل ما ورد في نقوش المقابر التالية:

(H11, 12, 13, 14, 16, 23, 26, 34, 35) وهذا ما يشكل حوالي 23٪ من إجمالي المقابر ذات النقوش.

ومما يدل على وضع المرأة المتميز في المجتمع هو ظهور صور الملكة على العملات بجوار الملك في عهد الملك عبادة الثالث (30-9 ق.م)، والملك الحارث الرابع (9 ق.م-40م)، كما كانت شقيقة والد الملك رب إيل الثاني تدير شؤون البلاد نيابة عن ابنها الذي تولى الملك صغيراً.

كما كان بعض الأشخاص ينتسب لأمه، كما في النقش (H16)، حيث تنتسب كمم إلى أمها ويلات. وأخبرتنا النقوش بوجود مهاجرين ضمن مجتمع مدائن صالح مثل النقش⁽¹⁾ الذي يخص شخصاً من أهل تيماء مقيم بالحجر.

وأمدتنا النقوش بمعلومات عن المهن التي عرفت في المجتمع مثل النحات الذي يبني المقابر (H7, 15, 19, 24, 28, 31, 32)، والحاكم (H6)، والطبيب (H19).

وتذكر النقوش الديانة النبطية وأسماء الآلهة مثل ذو الشرى ومناة واللات.

وللنقوش دلالة اقتصادية وقانونية حيث تحتوي على مقدار الغرامات الواجب دفعها في حالة وجود تعدد على المقبرة وتشير إلى من تدفع، حيث أن حوالي 30٪ من النقوش تحتوي على معلومات عن الغرامات، وعن حقوق الدفن، بل وتحدد الحصص داخل المقبرة، حيث يحدد النقش رقم H42 حصة لانيمو بأن له ثلث المقبرة وأرسكاس الذي له الثلثين. ونورد

مثالاً على نصوص المقابر من المقبرة h19)) التي تخص الطبيب كهلان وتحمل معلومات قيّمة عن الملكية، وكيفية استخدام المقبرة، وأسلوب حمايتها: والنص كما ورد في المخطوط:

- السطر 1. هذه المقبرة، التي بنى كهلان الطبيب بن وائل لنفسه وأولاده وذريته،
 - السطر 2. بالحق الشرعي (طبقاً للقانون) إلى الأبد، وهذه المقبرة محرمة كحرمة الحرام.
 - السطر 3. المحرم من ذو الشرى لدى الأنباط وسلام (السلاميين)، على كل إنسان له حق الوراثة إلا
 - السطر 4. يبيع المقبرة هذه ولا يمنح ولا يؤجر ولا يعير ولا يكتب.
 - السطر 5. (على) المقبرة هذه أي كتابة إلى الأبد. وكل إنسان يبرز بيده وثيقة من. كهلان
 - السطر 6. فيحق له بما فيها (أي الوثيقة)، وأي شخص يكتب على المقبرة هذه كتابة غير ما هو عليها
 - السطر 7. فليكن معه (فليحضر معه) لذي الشرى (مقدار) ثلاثة آلاف قطعة حارثية ولسيدنا
 - السطر 8. حارثة الملك مثلها، ويلعن ذو الشرى ومناة كل من يغير ما هو
 - السطر 9. مكتوب، بشهر أيار، سنة ثلاثين وخمس من حكم حارثة، ملك نبط محب شعبه
 - السطر 10. نحت (هذه المقبرة) أفتح بن عبد عبادة وخلف الله بن حملج، النحاتان.
- (الذبيب 1419، 254-55)

ومن العناصر الأخرى المهمة بالموقع منطقة جبل اثلب التي تعدّ بمثابة المنطقة الدينية بما تحويه من رموز دينية محفورة على الصخر، ولوجود الديوان وهو غرفة منحوتة في الحجر واجهتها الأمامية مفتوحة، وبها مصاطب للجلوس منحوتة من الحجر ويعتقد أنها لممارسة الشعائر الدينية. كما يوجد بالموقع المنطقة السكنية والتي تقع في السهل الفسيح بين المقابر، ومحاطة بسور تظهر بعض أجزائه على السطح. كما توجد قلعة مبنية من الحجر تعود للعهد العثماني، بالإضافة إلى مباني السكة الحديد، وإحداها تخص الورشة الخاصة بصيانة القطار.

الأنباط

يرتبط تاريخ الموقع بالأنباط وهم قوم من العرب، في رأي العديد من العلماء (Hammond 10.1973 : عباس 1987، 25: علي 1978: 9.3)، ومما يؤكد ذلك أن أغلب أسمائهم عربية، كما عبدوا الآلهة المعروفة في شمال الحجاز مثل ذو الشرى واللات والعزى. لم يترك لنا الأنباط للأسف سجلات تتحدث عن تاريخهم، وجلّ ما نعرفه عنهم من آثارهم التي تركوها مثل المقابر والفخار النبطي المميّز برقته ولونه الأحمر، والعملات والكتابات على المقابر. والمصدر الآخر لمعلوماتنا ما ورد عنهم في كتب المؤرخين الكلاسيكيين. إن أول ذكر واضح للأنباط جاء من قبل ديودورس الصقليّ عندما تحدث عن حملة أنتيجونوس ضدّ الأنباط في عام 312 ق م عندما هاجم البتراء واستولى على ممتلكات الأنباط الذين استطاعوا تتبع الجيش المهاجم. وفي وقت راحته انقضوا عليه وخلّصوا ممتلكاتهم وألقوا بالعدوّ خسارة جسيمة. ويتّضح من وصف ديودورس لهم في تلك الحقبة أنهم كانوا في مرحلة البداوة، إذ يذكر "أنهم يعيشون في الهواء الطلق، في أرض قاحلة بلا أنهار أو ينابيع...، ومن تقاليدهم ألا يزروا الحبوب، أو أي فاكهة، أو يشربوا الخمر، ولا يبنون بيوتاً، ومن يوجد يتصرف غير ذلك فعقوبته الموت" (XIX, 94, 3).

ويرسم لنا سترابو صورة عن الأنباط تختلف عمّا قدمه ديودورس إذ يصفهم بقوله: "الأنباط شعب حساس، ويثمنون حياة الممتلكات إلى درجة أنهم يغرمون علانية من يفرط في ممتلكاته، ويكافؤون من ينمّيها...، الملك ديموقراطي، فبالإضافة إلى قيامه بخدمة نفسه، فإنه أحياناً يقوم بخدمة الآخرين...، يبنون بيوتهم من الحجر... ولكونهم يعيشون بسلام فإن مدنها غير مسوّرة". (Geography 16.4.26).

ومن ملوك الأنباط المعروفين لدينا : الحارث الأول وهو أول ملك نبطي معروف ورد ذكره ضمناً عند الحديث حول نزاعه مع اليهود، وتاريخ بداية حكمه ونهايته غير معروف. الملك الثاني هو الحارث الثاني، وتاريخ بداية حكمه غير معروف، واستمر النزاع في عهده مع اليهود، ونهاية حكمه في 95 ق م ومن ملوك الأنباط أيضاً عبادة الأول (95-88 ق م)، وربّ أيل الأول (88-87 ق م)، والحارث الثالث (87-62 ق م) وفي عهده توسّعت المملكة النبطية إلى دمشق. ومالك الأول (62-30 ق م) وقد ضرب مالك عملة تحمل صورته على وجهه، ورسم لنسر على الوجه الآخر. وقد حكم عبادة الثاني في الفترة ما بين (30-9 ق م)، وفي عهده حصل الغزو الروماني للجزيرة العربية في عام 24-25 ق م، وبمشاركة وزيره سلي في الحملة مرشداً لها. لم يشتهر عبادة بالنشاط في الحكم بل يوصف بالكسل، وقد ترك الكثير

من شؤون الدولة إلى وزيره سلي. أما الحارث الرابع (9 ق م - 40 م) فقد دامت فترة حكمه حوالي 50 سنة وتميّزت باستقرار سياسي واقتصادي وشهدت تطويراً كبيراً عمّ أرجاء المملكة النبطية في المجالات الزراعية والاقتصادية. وقد لُقّب بلقب (المحبّ لشعبه). وقد اهتم الحارث بالبناء والتشييد وإلى عهده تعود معظم المقابر والمباني العامة. خلف الحارث الرابع بعد وفاته مالك الثاني (40-70م) واستمرت النهضة العمرانية في عهده وضرب عملة باسمه تظهر عليها صورته مع زوجته شقيقة. أما آخر ملوك الأنباط فهو ربّ أيل الثاني (70-106م)، تولّى الحكم صغيراً وقامت والدته بالوصاية عليه وتلقب "مانح الحياة لشعبه"، وقضى معظم وقته في مدينة بُصرى، وفي عهده استولى الرومان على المملكة النبطية عام 106م.

التجارة النبطية

إشتهرت الجزيرة العربية باشتغال أهلها بالتجارة، وكانت الطرق التجارية تتبع الموارد الطبيعية والأودية والسهول لسهولة سير الأنعام، وتخرج على مواطن الآبار ومصادر المياه، وكانت القوافل تحتاج إلى الراحة على مسار الطريق، فنشأت المحطات وكان يقدم فيها الطعام والخدمات، ومع مرور الوقت تطورت هذه المحطات إلى قرى صغيرة ومن ثم إلى مدن. وإحدى أهم الطرق التجارية في الجزيرة العربية هي الطريق الواصلة بين اليمن وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، تمتد هذه الطريق من شبوة إلى تنليث فديدان فمدائن صالح فتبوك فالبتراء فغزة، وفرع منها يتجه شرقاً من تيماء إلى الجرها على الخليج العربي، بينما تتجه طريق فرعية أخرى من البتراء إلى مصر (Groom 1981, 234).

لقد تخصص الأنباط في التجارة، مما حقق لهم ثراءً كبيراً وبخاصة من نقلهم للبان والبخور لمسافات طويلة. ولقد كانت مدائن صالح محطة مهمة على طريق التجارة، ولها ميناء بالقرب منها يعرف باسم (Kome Leuce) القرية البيضاء، وفي هذا الميناء كانت تؤخذ الضرائب على البضائع بمقدار 25٪. كما كانوا يستخرجون القار من البحر الميت ويصدّرونه إلى مصر، وكان لديهم نظام نقل متطور، إذ تبدّل الجمال المتعب في المحطات بجمال نشيطة (النعيم 1992، 208)، ومن المحتمل أن الأنباط كانوا يوفرّون حراساً لحماية القوافل.

طابع المدينة

تتوسّط المنطقة السكنية الموقع تقريباً، وهي صغيرة الحجم مقارنة بحجم الموقع الأثري إجمالاً، إذ تبلغ 49 هكتاراً أي أنّها تشكّل حوالي 14٪ من مساحة الموقع، وهي محاطة بسور

مبني من اللبن. ويلاحظ أن جزءاً من المقابر ينتمي إلى أشخاص لهم صبغة رسمية مثل الحاكم والقائد، مما يرجّح أن الموقع كان مركزاً إدارياً. وقد تكون المنطقة السكنية قد استخدمت بشكل مكثّف من الرسميين بينما كان السكان الآخرون يعيشون خارج الأسوار ويأتون إلى المدينة للعمل.

ويوحي وجود السور بأنه كان للمدينة بوابات تؤدي إلى شوارع. لقد كشفت الحفائر التي أجريت في مدائن صالح (البراهيم 1989)، (الطلحي 1996) (سراج علي 1990) عن وحدة سكنية مبنية من الحجر تتكون من ست غرف وباحة فسيحة في وسطها، كذلك كشف عن العديد من الأواني الفخارية، والعملات، والمعثورات الدقيقة، ويعتقد بوجود مبانٍ عامة في الموقع حيث تخبرنا النقوش عن وجود معبد (قيشا) (النقش H36).

من السمات المشتركة للمدينتين النبطيتين الكبيرتين: البتراء ومدائن صالح هو الوجود المكثّف للمقابر التي تتشابه في تصميمها ماعدا النوع المعروف بالكلاسيكي الذي لم يوجد في مدائن صالح. ولقد وجدت المعابد في العديد من المدن النبطية، بل في بعض الأحيان كان المعبد هو البناء الوحيد في الموقع مثل خربة تنور وروافة. وفي البتراء يوجد معبدان: الأسود المجنحة وقصر البنت، بالإضافة إلى ما يعرف باسم الأماكن المعلاة في أعالي الجبال، كما وجدت المعابد في خربة الضرية، ووادي رم وقصر رياح، وعبادة، ولكن ليس في مدائن صالح حالياً، وقد تظهر الحفائر المستقبلية مثل ذلك.

عرف الأنباط ببراعتهم في فنّ استخراج المياه ونقلها، ولكن لم توجد أمثلة متطورة على ذلك في مدائن صالح بخلاف الخزّان والقناة في منطقة جبل أثلب. وفي قمة ازدهار المملكة النبطية وجدنا مباني ثقافية، ومنشآت حضارية مثل الشارع المعمد في البتراء، والبوابة، والمسرح الرئيس الذي يتسع لحوالي 7.000-10.000 شخص، والحمامات العامة، ومثل ذلك لم يوجد في مدائن صالح.

إلا أنه من المعلوم أن الحفائر الأثرية في مدائن صالح لاتزال في بدايتها ومن المؤمل أن تكشف الأعمال المستقبلية الكثير من معالم المدينة وآثارها.

H : ترمز إلى الحجر بحسب تصنيف جون هيلي، 1993.

المراجع العربية

- البراهيم، محمد والطلحي ضيف الله. تقرير مبدئي عن حفرة الحجر الموسم الثاني. أطلال، 12: 8-21 (1989).
- الذبيب، سليمان، نقوش الحجر النبطية. مكتبة الملك فهد الوطنية. الرياض، (1419هـ / 1998م)
- الطلحي، ضيف الله. (1996). تقرير مبدئي عن حفرة الحجر (مدائن صالح) الموسم الرابع أطلال 14: 35-42، 1411هـ/1990م
- عباس، إحسان. (1987). تاريخ دولة الأنباط، عمان.
- علي، جمال الدين سراج. (1990). تقرير مبدئي عن الخربة الجنوبية، حفرة الحجر، الموسم الثالث، أطلال 13: 21-32، 1410هـ/ 1989
- علي، جواد. (1978). المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام. بيروت
- المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد. كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق دي جويه. لندن، 1909.
- النعيم، رة. الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية من القرن 3 ق.م إلى القرن 3 الميلادي. الرياض، (1992)
- ياقوت، الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي. معجم البلدان. 5 أجزاء تحقيق فريد عبد العزيز الجندي. بيروت.

المراجع غير العربية

- Didorus of Sicily**: in twelve volumes, Loeb Classical Library. translated by Old Father, C, H, 1946.
- Groom, N., **Frankincense and Myrrh. A Study of the Arabian Incense Trade**, (1981)
- Hammond, P.C, "The Nabataeans : their History, Culture and Archaeology". **Studies in the Mediterranean Archaeology**. (1973)
- Healey, J.F. **The Nabataean Tomb Inscriptions of Madain Salih**. Oxford University Press, (1993)
- Strabo, **The Geography**, tr. H.L. Jones, Loeb Classical Library, 1930